شهيد الكرامة

. مهند الحلبي .

الأسير عاشق الأقصى

تنويه: هذه القصة رويت على لسان الأسير المجاهد/ عبد العزيز مرعي
الذي رافق الشهيد البطل/ مهند الحلبي في طريقه نحو ساحة الطعان ..
صاغها الأسير/ عاشق الأقصى

إهداء

إلى روح الشهيد المجاهد البطل، الفارس الهمام، الأسد الضرغام:

مُهند الحلبي

إلى فرسان الطعان، الصناديد ، ليوث الكريهة ، أسود الوقيعة ، الذين لا يألون إقداما ، ولا ينكصون إحجاما ، ولا يعرفون انهزاما ، يلقون عدوهم : ثبت الجنان ،، بجرأة فائقة ، وعزيمة صادقة ..

يحملون أرواحهم على أكفهم ، ويلقون بها في مهاوي الردى .. يبتغون فضلا من ربهم ورضوانا ..

شعارهم:

إما أن نعيش فوق أرضنا أحرارا .. كراما .. وإما أن نوارى تحت ثراها .. بشرف .. ثوارا ..

والله إني كنت أستشعر ذلك النور في وجهه الوضاء المشرق، وأحسه كأنما يسعى بين يديه وعن يمينه.

كان له سمتا خاصا، هيبة ووقارا، وحسن خلق، ورقة طبع، وهدوء وروية، فيجعلك - بصورة تلقائية - تنجذب إليه كما تنجذب الفراشات إلى النور، وتتقرب إليه، ولا تطيق فراقه.

لكني ما كنت أعلم سر هذا النور، ما كنت أعلم أنه نور الشهداء، ما كنت أعلم أن صاحبي هذا الذي يمشي معي ويجالسني، ويمازحني، ويحاورني، رجل من أهل الجنة! وإنه إنما يعيش معنا في هذه الدنيا كزائر، أو عابر سبيل، ما يلبث أن يغادرنا عائدا إلى منزلة الأول وموطنه الأصلي، فرحا بما آتاه الله من فضله، مستبشرا بالذين لم يلحقوا به من خلفهم.

لو كنت أعلم ذلك لسخرت نفسي لخدمته ليلا ونهارا، ولتبعته كظله، ولظللت أنظر إليه، وأتأمل وجهه، وألتمس من نوره، وألثم رأسه ويديه ..

بلى .. علمت ! لكنني علمت متأخرا، فلم يسعفني الوقت، ثم إن شدة وقع الحدث، وتأثيره عليّ جعلني في غفلة من أمري، أذهلني

وشغلني عن أمر المشاعر التي تتفجر الآن لي، وتكاد تذيبني شوقا، ولوعة، وحسرة ..

كم أتمنى اليوم لو أني عندما ضممته، وقبلت رأسه، وودعته الوداع الأخير، أطلت قليلا، لكنه كان وداعا سريعا، «كلمح البصر» .. ربما لأنني اعتقدت أن فراقنا لن يطول، وأني سرعان ما ألحق به، وألتقيه في مقعد صدق عند مليك مقتدر .. مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين «وحسن أولئك رفيقا» .

لكنني تأخرت، فعثرت، فيما سارع هو، ففاز بها دوني ..

وها أنا ذا وقعت في أسر العدو، أعاني مع ..... القيد، وظلمة السجن، وظلم السجان، لوعة فراق الأحبة والخلان، وندب حظي مما فاتني من فوز بالجنان.

كانت بداية حكايتنا :

عندما اتصل بي عشاءً يوم الجمعة، الثاني من أكتوبر عام ألفين وخمسة عشر :

- السلام عليكم

- وعليكم السلام ، ورحمة الله وبركاته ..

- أرجـو أن لا أكـون قـد أزعجتـك باتصـالي بـك في هـذا الوقـت المتأخـر مـن الليـل

- كلا .. كلا .. فأنـت أخ كريـم .. وصديـق عزيـز ،، أسر بسـماع صوتـك في كل وقـت وحـين ..

- الحقيقـة يـا أخـي، أني رأيتنـي في المنـام أصـلي في المسـجد الأقـصى المبـارك، ومـن سـاعتها أشـعر برغبة جامحـة تدفعنـي للذهاب إلى المسـجد الأقـصى والصـلاة فيـه، وتحقيـق هـذا الحلـم، أشـعر كأنمـا الأقـصى يناديـني، يسـترخصني ويدعـوني: هلـمّ إليّ .. هلـمّ إليّ .. فتهتـز لهـذا الدعـاء كل ذرة في جسـمي، فـكأني بها تردد، وتقـول: لبيك .. لبيك يـا أقـصى !!

فهـل لـك – يـا أخـي الحبيـب – إلى أن تسـاعدني وتمكننـي مـن بلـوغ غايتـي، وتحقيـق أمنيتـي؟

- أبـشر خـيرا .. فعـلى الخبـير وقعـت، وسـأبذل مـا بوسـعي من جهـد كي أوصلـك إلى المسـجد الأقـصى، فتصـلي، وتقـر عينـك ويطيـب خاطـرك، وتطمـئن نفسـك.

- أستودعك الله الذي لا تضيع ودائعه.

وما أن طلع صباح اليوم التالي، حتى عاود الاتصال بي:

- السلام عليكم .

- وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته،

- ها .. هل ما زلت عند وعدك؟

- ابتسمت وقلت: أجل .. أجل ،، لكني الآن في عملي – كما تعلم – وحالما أفرغ، سأتصل بك، لنلتقي، وننطلق معا للصلاة في المسجد الأقصى.

- على بركة الله، أنا الآن في جامعة القدس، في أبو ديس، بانتظار اتصالك.

- توكل على الله ..

وعند الساعة الثالثة عصرا، اتصلت به، وطلبت منه أن يوافيني في مسجد صلاح الدين في بلدة أبو ديس.

والحقيقة أن اختياري لمسجد صلاح الدين جاء بصورة عفوية، دون قصد مسبق، لكني شعرت فيما بعد أن الله عز وجل قدر لنا الانطلاق منه لحكة أرادها، قد تكون إشارة – خفية – على أننا نسير على خطى هذا القائد المسلم العظيم، الذي ارتبط اسمه بتحرير المسجد الأقصى المبارك، بمعنى أن تحرير الأقصى إنما يمر عبر هذا الطريق – طريق الفاتح صلاح الدين- وما سواه من سبل لا توصل، ولن توصل إلى إلا الوهم والسراب.

هنـاك التقينـا، تصافحنـا، وتعانقنا، ثـم انطلقنا، أوقـده ويتبعني، ونحن نتبـادل أطـراف الحديـث، تحدثنا عن دراسـتنا الجامعية، وعـن اعتقالي الأخـير عنـد أجهـزة السـلطة الأمنيـة، والمعانـاة التـي لاقيتهـا، والغصـة التـي شـعرت بهـا، ويشـعر بهـا كل فلسـطيني حـر أبي، يـذل ويمتهـن كرامتـه عـلى أيدي أبنـاء جلدته، لا لذنـب اقترفه، إلا أنه قـاوم الاحتلال بشـكل من الأشـكال !!.

وصلنـا بلـدة العيزريـة المجـاورة، وسرنـا بمحـاذاة الجـدار الفاصل، حتى بلغنـا النقطـة التـي يمكننـا عندهـا تسـلق الجـدار، كان ارتفـاع الجـدار عنـد تلـك النقطـة، مـن جهتنـا نحـو ثلاثـة أمتـار، وضعفهـا في الجهـة المقابلـة، واسـتطعنا تسـلق الجـدار بفضل ثغـرات أحدثها شـبان البلدة فيـه، كـما اسـتطعنا أن نهبط إلى الجهـة المقابلة، رغم ارتفاعها الشـاهق مسـتعينين بأنبـوب معدني طويل، لنجد أنفسـنا وقـد تجاوزنا أول وأكبر عقبـة أمامنـا في طريقنـا نحـو غايتنـا الكـبرى، المسـجد الأقـصى المبـارك، تنفسـنا الصعـداء، وحمدنـا اللـه، وشـخصنا بأبصارنـا فـإذا قبـة الصخرة تـتراءى لنـا مـن بعيـد «صفراء فاقـع لونهـا تـسر الناظرين» .

وما أن وقعت عيوننا عليها حتى شـعرنا بسـحرها ينفذ إلينا، فتتغشـانا السـكنية، ونشـعر بالراحة والطمأنينة، وكادت تفيـض أعيننا من الدمع، شـوقا لمـسرى نبينا، وحزنـا أنه – وعلى شرفه - ومـا زال يدنس!!.

وواصلنـا سـيرنا، هبوطـا وصعـودا، وكان أكـثر مـا يشـغلنا دعـاء اللـه أن يبلغنـا غايتنـا ويعمـي أعـين الأعـداء عنـا، فـلا يصدونـا عـن مسـجدنا،

حتى أني لا أكاد أحصي كم مرة رددنا قوله تعالى: «وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا فأغشيناهم فهم لا يبصرون»؟

وصلنا «باب الاسباط» أحد أبواب المسجد الأقصى المبارك، وتزامن وصولنا مع رفع آذان العصر، فأخذنا نردد خلف المؤذن حتى إذا بلغ: حي على الصلاة، استرقت النظر إلى رفيقي «مهند» فرأيت الدمع يترقرق في عينيه، وهو يتمتم: لا حول ولا قوة إلا بالله .. لبيك يا داعي الله .. لا حول ولا قوة إلا بالله .. لبيك يا داعي الله.

وكانت جموع الناس تهرول باتجاه بوابة المسجد لإدراك الصلاة، فسارعنا بالاندساس بينهم، علّ أعين عساكر الاحتلال تزيغ عنا وتخطئنا، فندخل المسجد مع الداخلين، غير أن الذي كنا نخشى منه ونحاذر، وقع اندفع جنديا صهيونيان نحونا، ودون أن يسألانا أي سؤال، أمرانا بالعودة من حيث أتينا!

وقع الأمر علينا كالصاعقة، وكان وقعه على رفيقي مهند أكبر، فهو المتشوق، المتحرق شوقا للصلاة في الأقصى.

حاولت تخفيف وقع الأمر عليه، فسارعت بالقول:

- لا عليك يا صديقي، سنعاود المحاولة مرات ومرات، من بوابات أخرى: الحديد، السلسلة، القطانين .. ولا بد أن ننجح في نهاية المطاف.

فلنذهب الآن لنتوضأ ونصلي العصر، ثم نعاود الكرة، فيبدو أن أمامنا يوما طويلا، ثم انطلقنا «نجرب حظنا» على بوابات أخرى، وعبثنا حاولنا، كانوا جميعهم كأنما تواصلوا بنا! .. ما أن نقترب من بوابة حتى يشيروا إلينا بأيديهم، أن عودوا من حيث أتيتم!

فلما رأيت أن لا فائدة ترجى من كل محاولاتنا وشعرت بالحزن، والسخط والغضب الذي يعتلي في صدر صديقي مهند، قلت له:

- اسمع يا صاحبي؟

- انت غير ملتح، ومظهرك وملامح وجهك قريبة من ملامح شباب القدس، فلتحاول الدخول لوحدك، لعل الله ييسر لك أمرك، وتنجح بالدخول والصلاة.

ورتبت على كتفه وقلت: يكفيني - إن دخلت - دعوة منك في رحاب مسرى نبينا صلى الله عليه وسلم، فهز رأسه، وابتلع ريقه، وهو لا يزال متجهما، وقال:

- افعل، إن شاء الله.

وتوجه نحو البوابة، وهناك استوقفه أحد رجال الشرطة الصهاينة، وأمره بالعودة من حيث أتى !! فرد عليه مهند بصوت يحمل في نبراته السخط والحنق:

- لماذا تمنعني من الدخول والصلاة في المسجد الأقصى؟

- الدخول ممنوع لمن هم دون سن الخمسين.

- هل تقبل أن يقيد أحد سن اليهود المسموح لهم بالدخول والصلاة في كنائسكم في أي بلد من العالم، بسن معين؟

- فرد بغضب

- وقح .. انصرف .. انصرف من هنا .. قبل أن اعتقلك ..

عاد «مهند» إلىّ وخيبة الآمال والرجاء بادية على وجهه، وكان الحال يغني عن السؤال، وفيما انحبست الكلمات في صدري، ولم أجد منها ما يمكن أن يواسيه ويطفئ نار غضبه وسخطه، بادرني هو بالقول:

- سألقن ذاك العسكري درسا لن ينساه أبدا.

- وماذا ستفعل له؟

- سأصفعه على وجهه صفعة قوية تذكره أنا نحن أبناء هذه الأرض، وأهل هذا المسجد، وأنهم هم الغرباء الدخلاء، شذاذ الآفاق، وأنا لا نرضى الذلة ولا نقبل الدنية.

صمت برهة، ثم تنهدت، وقلت:

- وهل تساوي هذه الصفعة أن تكسر يدك، وتضرب، وتذل

وتهان، ويلقى بك في السجن بضع سنين؟ أو تحسب أن هذا العسكري الصهيوني المستبد، المتعجرف، سيفقه ويعي درس صفعتك؟ إنه ما يلبث أن ينسى أمرها مع ذهاب ألمها، وتلذذه بآلامك ومعاناتك.

إن كان لابد من درس تلقنه هذا الوغد، وغيره من الأوغاد الصهاينة، فليكن فعلا قويا مزلزلا، فهل أنت لها الفتى؟

- بلى ، أنا ، فمن زمن وأنا أتشوق ليوم الثأر، وشفاء الصدر، فلست بالذي يرضى المهانة، ويقبل المذلة والاستكانة.

كيف لي ألا أغار على ديني ووطني، وعرضي؟ كيف لي ألا أثور، وقد سفك المحتلون الغاصبون دماء الأبرياء من أبناء شعبي، ودنسوا مقدساتنا، ومسرى رسولنا صلى الله عليه وسلم، وامتهنوا كرامتنا، وتعرضوا بالأذى للحرائر الماجدات من أمهاتنا وأخواتنا؟

إن لم أثأر اليوم؟ فمتى أثور؟ لمثل هذا اليوم ولدتني أمي.

- لم يخب ظني فيك أبدا، لكن عليك أن تدرك، أنك بذلك تسلك طريقا باتجاه واحد، يوصلك إما للسجن، إما للجنة.

- فقاطعني بحزم، قائلا:

- بل الجنة ، فإني لأجد ريها دون بوابات هذا المسجد المبارك. يا الله .. الآن أدركت تأويل رؤياي.

إن صلاتي في الأقصى تعني: استشهادي فيه، سأنال الشهادة، أنا واثق من ذلك، إن لم يكن بداخل المسجد الأقصى فعلى أبوابه، نصرة له، وذودا عنه، الصلاة: صلة بالله، بها تسمو الروح، ويخشع القلب، وتزكو النفس.

وأي صلة بالله أعظم من أن تنتقل بكليتك إلى جواره عز وجل؟ فالشهداء عند ربهم لهم أجرهم ونورهم، والمسجد الأقصى هو مكان العروج والارتقاء إلى السماء، إنه بوابة السماء، منه عرج بالرسول صلى الله عليه وسلم إلى السماوات العلا.

مرحبا بالجنة ،، الآن ،، الآن ،، ألقى الأحبة، محمدا وصحبه.

أذهلتني كلماته هذه، وجعلتني أستصغر نفسي أمام عظمته، ونقلتني من عالم الدنيا الضيق، الوضيع، إلى عالم الآخرة الرحب الفسيح.

وأخذنا الحديث ونحن نسير، حتى وصلنا باب العامود، وهناك طلبت منه أن ينتظرني في محطة الباصات، حتى أعود إليه.

وانطلقت غير بعيد، إلى دكان أدوات منزلية، واشتريت منه سكينا حرصت أن يكون قويا وحادا، واضطررت أن اشتري معه بعض الصحون والمعالق، حتى أعمي على التاجر، فلا يعرف نيتي.

وعدت مسرعا إلى صاحبي وقدمت له السكين، فتهلل وجهه، وانفرجت أساريره، وأمسك بمقبضه، وأخذ يقلب بين يديه، وهو يتمتم، ويقول:

- إني لأتوق إلى طعنة نجلاء، طعنة .. وطعنة .. وطعنة ، طعنة أشفي بها صدري، وطعنة أرضي بها ربي، وطعنة أقدم بها عذري، اللهم إني أبرأ إليك مما فعل هؤلاء، وأشار بيده نحو الأعداء، واعتذر إليك من تخاذل هؤلاء، وأشار بيده نحو المسلمين .. ثم قلت له:

- ألا تتصل بأمك، فتودعها الوداع الأخير «دون أن تشعرها بشيء» لتسمع صوتها، وتسمعها صوتك، فيكون آخر حديث بينكما في هذه الدنيا؟

- إن تحدثت مع أمي فلا بد أن تسألني: أين أنت الآن؟ وماذا تفعل؟ ومتى ستعود؟ فماذا أجيبها؟ لا يمكنني أن أقول لها الحقيقة، ولا أقدر أن أكذب «وحتى إن حاولت، فلن أنجح، فهي أعلم بي من نفسي، ثم إنها تذكرني بالدنيا، وأخشى إن تحدثت معها أن يرق قلبي، وتضعف عزيمتي، وتخفت حماستي.

- يكفيني أن تبلغها ، وتبلغ أبي وإخوتي وصيتي، التي سأمليها عليك الآن ..

- وأملى عليَ وصيته، ثم أقبل عليّ يعانقني وعانقته، وقبل كل منا رأس أخيه، وودعته قائلا:

- اليـوم أنـت، وغـدا أنا «إن شـاء الله» وأسـأله تعـالى أن يجعل أفئـدة مـن النـاس تهـوى لفعلنـا، فتلحـق بنـا، وتقتفـي أثرنـا، وتسـير عـلى نهجنـا، لـنرى أعـداء اللـه وأعداءنا ما يسـؤوهم، ويـسر قلوب قوم مؤمنـين، ثـم أوصيتـه:

- أحكم قبضتك، وسدد طعنك.

- أوتشك في ذلك ؟

- ابتسـمت وقلـت: كلا، واللـه .. فأنتـم آل الحلبي مشـهود لكم بأنكـم فرسـان الطعـان، مـن لا يذكـر سـليمان الحلبـي؟ ذلـك البطـل المسـلم الـذي قتـل «كليـبر» قائـد الجيش الفرنـسي الغازي لمـصر، طعنا بخنجره، فقد كان بطلا باسـلا في الطعان، وبطلا باسـلا عند استشـهاده، تصـور أنهـم حكمـوا عليـه أن تحرق يده قبـل إعدامه، ووضعـوا يده في النـار، فـما يئـس بنيـت شـفة، ومـا صرخ ومـا تـأوه، رغـم شـدة الألم!

وأنـا عـلى ثقـة أن يدك لن تهتز ولـن ترتج، وأن الله سـيكرمك، ويكرمها بغمسـها في الجنـة، وسـيظل النـاس يثنـون عليـك، وعليهـا، كل أحـرار الأمـة سـيقولون اليـوم: سـلمت يمينـك .. سـلمت يمينك.

وافترقنـا .. أنـا إلى أبـو ديـس أتابـع ما يكون مـن أمره، وأتجهـز لمعركتي في الغـد، وهـو إلى سـاحة النزال وميـدان الطعان، إلى بـاب الواد ..

مـر مهنـد ببـاب الـواد، يمـشي هونـا، رابـط الجـأش، ثابـت الجنـان،

تاركا خلفه الدنيا بكل زينتها، وزخرفها، ومتاعها، وملذاتها، ومحنها وآلامها، وأحزانها، وتعبها ونصبها، مواليا وجهه قبل المسجد الأقصى المبارك، مقبلا على الآخر، مستبشرا بالجنة، وراح يتحسس سكينه الذي يخفيه تحت ثيابه، يشعر كأنما بيده سلاح فتاك، أقوى من طائرات الاحتلال ودباباتهم وصواريخهم وقنابلهم !.

يقول في نفسه: «كم مرة أمسكت بمثل هذه السكين، فما شعرت بقيمته وأهميته، إلا الآن؟ أنت الآن - أيها السكين - الوسيلة التي ستمكنني من عدوي، وتبلغني ثأري، وتشفي صدري، وتوصلني إلى جنات ربي، لو تعلم كم هي قيمتك عندي الآن، أيها السكين لتطاولت، وتمايلت، زهورا وغرورا وفخرا!!

ثم ابتسم وأردف قائلا:

لكني أحذرك أن تفعل ذلك الآن، فتفضحنا، وتفشي سرنا، إن كنت لابد فاعل، فافعلها عندما أغرسك في صدر من كتب الله عليه الشقاء، هذا المساء!

ثم تابع المهند سيره، تغمره مشاعر العزة، والقوة، والفرحة، إنها مشاعر لا يمكن لأحد أن يصفها، إلا إذا مر بتلك الحالة، وعاش ذلك الموقف.

إنه شعور بالعزة التي لا يملك أحد في الكون - اليوم - أن يسلبها منه، وشعور بالقوة لا يعكره، ولا يضعفه أي إحساس بالخوف أو

التوجس أو التحسب، فمما سيخاف من طلق الدنيا وأقبل على الشهادة؟!

ويتقدم المهند، وفي كل خطوة يخطوها يشعر أنه يقترب خطوة من الجنة، أسمى أمانيه.

وتقترب اللحظة الحاسمة، فتقع عيناه على مستوطن صهيوني يمر مع زوجه في السوق، متحديا بكل عنجهية ووقاحة، أهل السوق، وأهل الحي، الذين اعتادوا أن يروا الذي يغتصب أرضهم ويضيق عليهم زرقهم، ويدنس مقدساتهم، ويذلهم، ويمتهن كرامتهم، ويتقبل ويسجن أبنائهم وإخوانهم، يروح ويأتي متبخترا بينهم، ومع ذلك لا يملكون أن يفعلوا له شيئا.. !

لابد وأن كل واحد منهم قد حدث نفسه بذلك، لكن العجز يكبله، وحساب العواقب يردعه ،، يقول:

إن فعلتها فسيقتلونني أو يسجنونني، وسيهدم بيتي، وتشرد عائلتي، لكن حسابات المهند كانت مغايرة:

إن فعلتها: سيفرح قلبي، ويألم عدوي، ويشفى صدري، سأقتل وأقتل، هم إلى الجحيم، وأنا إلى الجنة، ولا سواء أنا الفائز وهم الخاسرون، فلم التردد والتثاقل والعقود؟؟

وانتفض المهند، ووثب على عدوه، كما يثب الأسد على فريسته، وسدد له طعنات نجلاء، قاتلة، وهو يصرخ ويولول حتى سقط صريعا، لو رأيت خور وفرق هذا الرعديد الجبان، وجزعه من الموت، وشدة حرصه على الحياة، ما كنت لتصدق أنه هو ذاته الذي قبل لحظات فقط يمشي مختالا، مرحا فخورا، يظن أن لا يقدر عليه أحد! كأنما يقول في نفسيه، من أشد مني قوة؟! ف « قتل ما أكفره» !!

أما امرأته، ففرت هاربة تستصرخ وتستنجد ومن عجب أنها كانت تستنجد بأصحاب المحلات العرب، الذين طالما نالهم من أذاها وأذى زوجها، وقومها المغتصبين الصهاينة، الكثير، الكثير، هل كانت هذه المرأة الصهيونية المتطرفة، تنتظر من هؤلاء التجار بعد كل هذا الظلم والعدوان الصهيوني الواقع عليهم، أن يهبوا لنجدتها، فيتصدوا لابنهم الشهم البار الوفي، الأبي، الذي هب منتصرا لهم ثائرا لكرامتهم، فيبطشوا به، أو يثبتوه، ويسلموه لعدوه، يحكم في أمره، يقتله أو يسجونه؟!

لا تعجب أنها كانت لشدة وقاحتها تنتظر منهم ذلك وأكثر !!

وحتى بعد انتهاء الأمر، لم يسلم هؤلاء التجار من شرها، فقد خرجت على وسائل الإعلام وأدعت - كذبا وزورا - أنهم عندما استغاثت بهم، سخروا منها، وراحوا يبصقون عليها، ويقولون لها: فلتموتي! واستدعى هؤلاء التجار للتحقيق معهم، وأغلقت محلاتهم التجارية، عقابا لهم .. !

أما «مهند» فكان من أمره، أن تقدم ضابط في جيش الاحتلال الصهيوني معتقدا أنه بسلاحه الناري، وخبرته العسكرية الكبيرة، سيتمكن بكل سهولة ويسر من حسم هذه المعركة لصالحه، فالأمر لا يحتاج منه أكثر من أيطلق بضع رصاصات من مسدسه – عن بعد – نحو هذا الشاب اليافع الذي لا يمتلك خبرة قتالية أو سلاحا ناريا، فيقضي عليه ليحظى بعد ذلك – بالشهرة والتكريم والأوسمة، وشهادات التقدير- .

لكن أحدا لا يعلم كيف تكمن الفتى اليافع الذي لم يتلق أي تدريب عسكري، ولم يحمل – يوما – سلاحا ناريا في يده، من أن يغلب الضابط صاحب الخبرة والتجربة، والسلاح، فيصرعه بسكينه، ويستولي على مسدسه، ويشتبك به مع عساكر الاحتلال، ويوقع في صفوفهم عددا من الإصابات، قبل أن يرتقي شهيدا في سبيل الله .. !

هناك في «أبو ديس» عشت لحظات صعبة من الترقب والتحسب، ظللت أضرب أخماسا في أسداس، منتظرا بفارغ الصبر، ما يكون من أمر صاحبي «مهند»، ولم يهدأ لي بال، ولم يستقر لي حال، إلا بعد أن بدأت وسائل الإعلام تتناقل الأخبار، وأخذت الصورة تتضح شيئا فشيئا ..

عندها خررت ساجدا، وحمدت الله عز وجل أن وفق أخي مهند، وثبته، ومكنه من عدوه، فأبلى هذا البلاء الحسن، ثم رحت أحضر نفسي وأتأهب ليوم مشهود في غدٍ، وقد أعطاني نجاح أخي مهند،

والأثـر البالـغ الذي أحدثتـه عمليته، دافعا قويا، وشـحنة معنوية عالية، حتـى أني أخذت أرسـم تصورات، وسـيناريوهات لما سـأقوم بـه في الغد، ورحـت أتوعدهـم وأقول في نفسي: « إن موعدهـم الصبح أليس الصبح بقريب».

غـير أن أعـداء اللـه لم ينظـرني حتـى الصبـاح، تفاجـأت بقـوات كبـيرة مـن الوحـدات الخاصـة الصهيونية تحـاصر مكان إقامتـي، وتطلب مني تسـليم نفسي.

حاولـت الهـروب، لكنـي لم أجد لذلك سـبيلا، فجنود الاحتـلال يحيطون بالمنـزل، إحاطـة السـوار المعصـم، ومـا في يـدي مـن سـلاح أقـاوم بـه، فلـم يكـن أمـام مـن يـد إلا أن أسـلم نفـسي، وكم هـو ثقيل عـلى نفس الحـر الثائـر، أن يسـلم نفسـه لعـدوه، ليضـع القيـد في يديـه وهـو إنمـا ثـار عـلى القيـد والظلـم والعـدوان، لكـن ما حيلتـه، وقد خلـت من أي سـلاح يده ؟؟

وقعـت في قبضـة جنـود الاحتـلال، فكانـت فرصتهـم، ليظهـر كل واحـد منهم قوته، وبأسـه ويفرغ حقـده، ولؤمه وغضبه فيّ، صفعات، لطمات، لكـمات، وكـزات، ركلات، تنهـال عليا من كل جانب، وأنـا مكبل اليدين، معصـوب العينـين، لا أملـك إلا دعـاء اللـه الـذي يعلـم ضعـف قـوتي، وقلـة حيلتـي، وهـواني عـلى النـاس، أن لا يكلني إلى هذا العدو الغاشـم اللئيم الـذي يتجهمني، ويسـتضعفني.

وسرعان ما حملني جنود الاحتلال في إحدى آلياتهم المصفحة، وساروا بي إلى مركز التحقيق والتوقيف في عسقلان.

وهناك بدأت مراسم التحقيق:

طلبوا مني نزع ثيابي، واستبدالها باللباس الخاص بالسجناء الأمنيين، ثم عرضوني على طبيب في عيادة المركز للتحقيق من حالتي الصحية ليبدأ التحقيق بعد ذلك مباشرة ..

استخدم المحققون معي - بادئ الأمر - أسلوب الإقناع، وذلك محاولة منهم لحملي على الاعتراف وكان مما قالوه:

- لابد وأنك تعرف لماذا أرسلنا هذه القوة الكبيرة لاعتقالك، وإحضارك إلى هنا .. «أنت بتعرف شو للي عملته؟ واحنا بنعرف؟ «

- لدينا الكثير من الأدلة التي تدينك، وأذكر لك واحدا من هذه الأدلة: :بصمتك على السكين» مطلوب منك الآن، أن تقص علينا القصة «من أولها لآخرها وبالتفصيل» أمامك خياران: «بتحكي بالمليح أو بالقبيح» .. أنا بنصحك تحكي بالمليح لأن كل الأدلة ضدك، والأمور واضحة ولن تستفيد شيئا من الإنكار «حرام تعذب نفسك على الفاضي».

- كان لهذه الأقوال وقع الصاعقة عليّ، فقد أدركت أن أمري كله قد كشف، وأني قد وقعت في «ورطة كبيرة» وأنه كان ينبغي

عـليّ مسـح بصـماتي عـلى السـكين، قبـل أن أعطيـه لـلأخ «مهنـد» لكن قـضى الأمـر، ولا راد لقضـاء اللـه وليـس أمامـي الآن إلا الصـبر والثبـات، وإنـكار كل مـا هـو منسـوب إليّ، لأن أي اعـتراف منـي لابـد وأن يزيـد وضعـي تعقيـدا، فمهـما كانـت لديهـم مـن معلومـات، لابـد وأن تكون نا قصة.

صمتـي إن لم ينفعنـي فلـن يـضرني، أمـا حديثـي فهـو في كل الأحـوال سـيضرني، ويثبـت التهـم عـليّ فـكان ردي عليهـم:

- أنـا لا أعلـم شـيئا عـما تتحدثـون عنـه، وليـس لي أي علاقـة بعمليـة الطعـن التـي حدثـت في القـدس.

- لكـن الكاميرا تقـول غير ذلـك، وهي لا تكـذب .. لقد التقطت الكاميرات العديـد مـن الصـور لـك ولمهنـد الحلبـي معـا في أسـواق القـدس، أتحـب أن نريـك بعضـا مـن هـذه الصـور؟

- كل مـا في الأمـر أنـه طلـب مـن أن أوصلـه إلى القـدس للصلاة في الأقـصى، ففعلـت، ثـم عـدت إلى «أبـو ديـس» ولا علـم لي، ولا علاقة بالـذي حـدث بعـد ذلـك.

واسـتمرت محاولاتهـم إقناعي بالاعـتراف، إلا أنني أصريت على موقفي، لمـا رأوا أن أسـلوب «الإقناع» غير مجـدي معي، قالو لي:

- سـنعرضك عـلى جهـاز كشـف الكـذب، وهـو آلـة محايـدة لا

تنحاز لأي طرف، وستظهر صدقك من كذبك.

قاموا بعرضي عدة مرات على هذا الجهاز وفي كل مرة، كانوا يسألونني نفس الأسئلة:

- هل ساعدت مهند الحلبي بالتخطيط للعملية؟
- هل ساعدت مهند الحلبي بتنفيذ العملية؟
- هل تخفي أشخاصا آخرين لهم علاقة بالعملية؟

وكنت في كل مرة أرد بالنفي، فيقولون لي: إن الجهاز يظهر أنك تكذب.

أياما صعبة وثقيلة أمضيتها في زنازين وأقبية التحقيق، لم يدخر فيها الجلادون جهدا ولم يتركوا وسيلة إلا واستخدموها بحقي، لانتزاع اعتراف مني، لكن الله كان لي حافظا ومعينا، واستعنت بالصبر والدعاء، فانقضت هذه الأيام بكل ما فيها من شدة وألم، وأنا ثابت صابر صامد.

وفي الأسبوع الثالث من التحقيق جاءني مسئول طاقم المحققين المدعو «دنيس» وقال لي:

- لا تريد أن تعترف، لا بأس، كما تريد، لكن اعلم أن لدينا من الأدلة ما يكفي لمحاكمتك وإدانتك، وسنقدم توصياتنا للمحكمة والقضاء لإيقاع أقصى العقوبات بحقك، لأنك رفضت التعاون في التحقيق.

- سننقلك غدا إلى السجن، فهيء نفسك لقضاء سنوات طويلة فيه.

وفي اليوم التالي، جاء السجانون، ونقلوني بالفعل إلى سجن مجدو، وعندما وصلت باب السجن حاكت في نفسي الهواجس، وتملكني حالة من الريبة والتوجس، وقلت في نفسي لماذا ينقلوني إلى سجن محدو؟ وهو سجن لا يستقبل إلا أصحاب القضايا والمحكوميات الخفيفة، لا بد أنهم يذهبون بي إلى غرف العار «العصافير».

دخلت السجن، وتم وضعي في غرفة تحتوي على ثلاثة أشخاص، وهناك تيقنت أني في غرفة العصافير.

وحاول هؤلاء الخونة الأنذال، الإيقاع بي، واستدراجي في الكلام، لأفضي لهم ما في جعبتي من معلومات، بكل الأساليب والوسائل الممكنة، فسألوني عن عملية الشهيد مهند الحلبي، وعن نشاطي في الكتلة الإسلامية في جامعة القدس، وعلاقتي بحركة حماس.

لكن أمرهم - كما أسلفت - كان مكشوفا لي فلم أفدهم بشيء، أمضيت عندهم أربعة أيام، ومع أني نلت فيها قسطا من الراحة، إلا

أن التوتـر والتوجـس والحـذر، الـذي لازمنـي طيلـة الوقت، أفسـد عليّ تلـك الراحة.

ثـم بـدا لهـم مـن بعـد مـا رأوا أن أمـر «العصافير» مكشـوف لـديّ، أن يعيدوننـي إلى التحقيـق، عـدت إلى عسـقلان، فتـم احتجـازي في إحدى زنازيـن التحقيـق ليـوم واحـد، وبعدهـا اسـتدعيت لمكتـب التحقيـق، وكان في انتظـاري المحقـق المكلـف بملفـي المدعـو «انـدي» فقـال لي:

- الآن انتهـت مرحلـة التحقيـق معـك بالكامـل، وسـننقلك إلى السـجن، ثـم ضمـك، وأردف يقـول: هـذه المـرة «سـجن حقيقـي» لكن عليـك قبـل ذلـك أن تسـجل إفادتـك عند الشرطـة، كما سـيتم تصويرك وأخـذ عينـة (DNA) منـك، وهـذه إجـراءات روتينيـة نقـوم بهـا مـع سـائر المعتقلـين قبـل نقلهـم إلى السـجون.

- فقلـت: كيـف أسـجل إفـادتي، وانـا لا يوجـد عنـدي اعـتراف أصـلا؟

- تسجل عند الشرطة الذي قلته لنا دون زيادة، أو نقصان.

- إن كان كذلك، فلا بأس .

ثـم سـارت الأمـور في تسـارع وتتابـع، أبلغـوني أننـي سـأنقل إلى سـجن بـئر السـبع، ونقلـت فعـلا إلى سـجن بئر السـبع، فسررت جدا، وشـعرت بنشـوة الانتصـار، فقـد نجحـت في الاختبـار، وتجاوزت محنـة التحقيق،

والعصافير بنجاح، ولم يتمكن المحققون بكل وسائلهم وأساليبهم من إخضاعي، أو الإيقاع بي، وها أنا ذا أنقل إلى السجن، دون أن يحصلوا من على أي اعتراف.

وصلت إلى سجن بئر السبع، ومشاعر الفخر والاعتزاز لا تزال تستحوذ عليّ، ثم قابلني أحد ضباط السجن، وسألني»

- إلى أي تنظيم تنتمي؟

- أنا لا أنتمي لأي تنظيم، وليس عندي أي اعتراف.

- فقال وهو يتأفف: أنا لا أحقق معك، أسألك فقط لأعرف، عند أي تنظيم تود أن تكون، حتى أرسلك عندهم.

- حماس

- حسنا، إذن، سأرسلك إل قسم (7) فهو قسم تابع لأسرى حما س .

دخلت القسم مع موعد صلاة الظهر، فأديت الصلاة جماعة في الساحة، وما إن انتهيت الصلاة، حتى تحولق حولي الأسرى، واستقبلوني بحفاوة بالغة وترحاب، ثم دخلنا الغرب وتناولنا وجبة الغداء، وبعدها، عقدت جلسة تعارف، عرف فيها كل واحد فينا على نفسه، بذكر اسمه وعمره وعمله، ومكان سكناه.

وقدموا لي حقيبة، فيها كل ما يحتاجه القادم الجديد من ثياب، ومواد تنظيف.

وكان من بين نزلاء الغرفة التي وضعت فيها سجين قد مسه الكبر، ووسمه الزمان بعلامات ظاهرة على وجهه، فانتابني نحوه مشاعر من الشفقة والرحمة، فأخذت عهدا على نفسي، أن أقوم على خدمته، وبدأت فعلا بالتقرب منه، والتودد إليه، ومساعدته.

وشعر هو باهتمامي الزائد به، واحترامي الكبير له، فلما كان الغد خرج كل من في الغرفة إلى الساحة «الفورة» وخرجت معهم، فيما بقي وحده بالغرفة، وبعد قائق أرسل في طلبي، فلما أتيته، جلس معي، وقال لي:

- أنا أتحدث معك الآن بصفتي أمير هذا القسم، لأعرفك بطبيعة واقعنا الاعتقالي، وأتعرف منك على قضيتك، هذا القسم مخصص لاستقبال الأسرى الجدد، وبعد التعرف عليهم يتم نقلهم إلى الأقسام الكبيرة، والحياة في تلك الأقسام أفضل بكثير مما عليه هنا، هناك نظام وانضباط، واستقرار، وبرامج ثقافية، وأسهب في الحديث عن ميزات تلك الأقسام، ثم طلب مني أن أقص عليه قصتي، وأطلعه على تفاصيل ما جرى معي في التحقيق، وقال أنه سيعمل على مساعدتي، وتعيين محام مناسب لي فأعدت على مسامعه، ما كنت قلته في إفادتي أمام الشرطة، وما أن سمع اسم الشهيد مهند الحلبي، حتى أبدى تأثره البالغ، وانتفض قائما، وهو يقول:

- أنت الذي أوصلت، وساعدت هذا البطل العظيم، الذي رفع رأسنا، ورأس الأمة العربية والإسلامية عاليا، وأشفى صدورنا، وأنتصر لإخواتنا الماجدات المرابطات في المسجد الأقصى؟

ثم انحنى وقبل رأسي، وهو يقول بتأثر بالغ وانفعال:

- جزاك الله عنا وعن الأمة الإسلامية خير الجزاء، فشعرت بالحرج، وسارعت بالقول:

- لقد أوصلته من أجل الصلاة فقط، ولا علم لي بالمطلق بأمر العملية، قلت ذلك حذر الرياء، وحتى يبقى عملي خالصا لوجه الله عز وجل، وليس حيطة ولا حذرا !!

فأبدى استياءه، وتبرمه، وقال بلهجة غاضبة:

- أنت مجاهد وعليك أن تفخر بما قمت به من عمل جهادي بطولي، أم أنك لا تثق بي؟

- ما شاء الله ! فأنا أكن لك كل تقدير واحترام، ثم صمت برهة، وقلت في نفسي: لم لا أخبره الحقيقة، فالتحقيق معي قد انتهى، وأنا الآن بين إخواني الأسرى، الذين يحبونني ويحرصون على؟

فأخبرته بقصتي كاملة من أولها لآخرها، وبالتفصيل الممل!

فتهلل وجهه فرحا وسرورا، وانصرف وتركني.

وفي اليـوم التـالي: جـاء شـخص آخـر يدعـى «أبـو مهـدي» وعرفني على نفسـه بأنه مسـئول الأقسـام، وأبلغني بأنه سـينقلني إلى الأقسام، وآخذ يطمئننـي، ويرغبنـي في الأقسـام الكبيرة قائلا:

- أنـا متأكـد أنـك سـتجد مسـتراحك، وسـتقر عينك مـع إخوانك هنـاك، وسـيكون بإمكانـك الاتصـال باسـتمرار مـع أهلـك، مـن خـلال أجهـزة الهواتـف الخلويـة المهربة، وسـتلتقي بأخير الأسـير «رمزي»، كما سـيمكنك متابعـة وإتمـام دراسـتك الجامعيـة ..

ففرحـت جـدا بذلـك، وقمـت مسرعـا وجهزت نفـسي، وانطلقـت معه، إلى الأقسام!!

وفي طريقنـا، عرجنـا عـلى غرفـة كان بداخلهـا شـخصان ملثـمان، فاسـتغربت مـن ذلـك وتوجهـت «لأبي مهـدي» بالاستفسـار:

- لماذا هما ملثمان؟

- فأجابنـي: هـما مـن التنظيـم السري، وهـما يتلثـمان في العادة لـدواع أمنيـة، كي لا يعرفهـما أحـد.

جلسـنا في هـذه الغرفـة مـع الملثمـين، وقدمـوا لي ورقـة، ففعلـت ومـا أن انتهيـت مـن الإجابـة حتـى فتـح البـاب فجـأة فخـرج «أبـو مهدي» مسرعـا مهـرولا، ودخـل عـدد مـن المحققـين، بينهـم مسـئول ملـف التحقيـق معـي، وكشـف الملثمان عـن وجهيهـما، وهما يضحـكان، فإذا

هـما محققـان مـن «الشـاباك» وتقـدم نحـوي اثنـان مـن السـجانين ووضعـا القيـد في يـدي وقدمـي.

كان وقـع الصدمـة عـلى أكـبر مـن أن أتحمله، اسـودت الدنيـا في عيني، وأظلمـت وتغشـتني الهمـوم والأحـزان، وضاقت على الدنيـا بما رحبت، وضاقـت عـلى نفـسي، وأصبـح صـدري ضيقـا حرجـا، كأنمـا أصعـد في السـماء. .

تمنيت لو أن يكون حلما، أو كابوسا مزعجا، ما ألبث أن أصحو منه.

لكنـه كان حقيقـة، حقيقـة مرة، قاسـية، مؤلمة، لقد وقعـت في المصيدة، نعـم لقـد نجحـوا في اسـتغفالي والإيقـاع بي، وعـلى أن أدفـع الثمـن، ولا شـك أنـه سـيكون باهظا، سـنين طويلـة من عمري في السـجن.

لكـن أعـزائي: إني في سـبيل اللـه، وأن مـا أصابنـي لم يكـن ليخطئني، وأن اللـه لن يـترني عملي.

«إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب»